مع نازك الملائكة قبل عشرين عاماً

عبد الرضا علي*

قبل أن أكتب أطروحتي عن نازك الملائكة، وخلال مرحلة جمع الجزازات لتثبيت ما لها وما عليها، كتبتُ لها رسالة، حيث كانت تقيم في الكويت سنة ١٩٨٦، أشعرتها فيها برغبتي في الحصول على بعض الإجابات والمقالات، موضحاً هدفي في تأصيل القول في نظريتها النقدية برمته، سواء ما كان متعلقاً منها بحركة الشعر الحر، أم بغيرها، كشعر الشطرين، ومحاولاتها في ابتداع المصطلحات النقدية والأوزان الشعرية الجديدة، وما تعلق من نقدها بالرواية والمسرح، وغير ذلك. وطلبتُ منها تزويدي ببعض كتاباتها التي عزّ عليَّ الحصول عليها، لا سيما تلك التي نُشرت في مجلات تباعدت زماناً ومكاناً.

ولم يدم الانتظار طويلاً، فسرعان ما وصلني جوابها، وقد أرفقتْ بهِ سيرتها الذاتية التي وسمتها بـ"لمحات من سيرة حياتي وثقافتي"، ومعظم ما طلبتهُ من مقالاتها. ثم توالتْ رسائلي التي حملتْ بعض ما عنَّ لي من أسئلة خلال القراءة. لكنّ الذي كان يتولى الرد عليها كتابياً (بعد رسالتها الأولى) زوجها الدكتور عبد الهادي محبوبة، وكان رقيقاً دمثاً مجاملاً، كصديقٍ قديم، يشعرني، بعد المقدمات، أنّ ما يكتبهُ ليس سوى ردّ نازك. ومع ذلك كنتُ أظنُّ أنّ في بعض الردود توجيهاً يعود إليه، لا سيما ما كان منهُ مما تعلّق بتهمة الارتداد، والخروج على المنطلقات الأولى لحركة الشعر الحر.

وحسماً للشك، وإبعاداً لإثم الظنّ، وتحقيقاً لفرصة اللقاء بها وجهاً لوجه، قرّرتُ السفر إلى الكويت لمناقشتها في بعض ما رأيته حريّاً

* ناقد وأكاديمي عراقي مقيم في بريطانيا.

بالمناقشة. غير أن الرياح جرت بما لا تشتهي السفنُ؛ فلم تمنحني سفارة الكويت ببغداد تأشيرةً لدخول الكويت!

وحين التقيتُ الأستاذة الدكتورة خديجة الحديثي، وهي الصديقة الأثيرة الحميمة لنازك الملائكة، المطّلعة أكثر من غيرها على سيرتها وخصوصياتها الحيوية، وجدتُ عندها الكثير من الإجابات التي تعلقتْ بالسيرة الذاتية. أما ما تعلق منها بالفن والإبداع والنقد، فإن الدكتورة الحديثي تعهدتْ شخصياً بمساعدتي في تحقيق اللقاء بنازك إذا ما صعدت بغداد من الكويت.

وفي مساء ١٩٨٦/٣/٢٠، زارني في بغداد الصديق ثابت الألوسي ليخبرني أنّ الدكتورة خديجة الحديثي تطلب مني مهاتفتها. وحين فعلتُ، أعلمتني أنّ نازك في بغداد لحضور مؤتمر الأدباء العرب الخامس عشر، وأنها تقيم في فندق "المنصور ميليا"، وأنها رتبتْ لي لقاءً بنازك صباح اليوم التالي ١٩٨٦/٣/٢١، في صالة الفندق، بشرط ألاّ أحمل آلة تصوير (كاميرا) وألاّ أسجل شيئاً أمامها، إنما أقوم بتسجيل وكتابة ما يدور في المقابلة بعد انتهاء اللقاء. فوافقتُ، وشكرتها، وهيّأتُ نفسي في تلك الليلة، وراجعتُ ما عنَّ لي من ملاحظة، وهيّأتُ أسئلتي، وتدرّبت على المحاورة شفهياً.

اللقاء:

جرى اللقاء في صالة الفندق ببغداد، في الساعة التاسعة والدقيقة العشرين من صباح يوم ١٩٨٦/٣/٢١، بحضور زوجها الدكتور عبد الهادي محبوبة (واقتحام الدكتور محمد كاظم البكاء للجلسة). وبعد تقديمي الشكر على موافقتها لإجراء المقابلة، وترحيبي بها وبزوجها، بدأتُ الحديث (الذي أعددتُ لهُ نفسي) عن حركة الريادة، ومعارك المتضامنين، مُعرّجاً على أهم ما ردَّدهُ خصومها، وما أشاعوه عنها من ارتدادٍ. وبيَّنتُ لها أنني أهدفُ من وراء هذا اللقاء إلى الوصول إلى الحقيقة، وإذاعتها بين الناس وأن عليها أن تساعدني في ذلك لتكون دراستي موضوعية، وألا تبخل عليّ بما يفيدني، وأن يتسع صدرها لبعض أسئلتي التي قد تحسبها استفزازية أو مشاكسة. فابتسمتْ ثم التفتتْ إلى الدكتور محبوبة الذي كان يجلس جوارها من جهة اليمين، وكلمتْهُ بصوت خفيض، فحرك الدكتور رأسه ملتفتاً إليّ قائلاً: لك أن تسأل، وتسجل الإجابات كتابةً، فقد سمحتْ لك نازك بذلك. فأجبتهُ أنني التزمتُ بملاحظة الدكتورة خديجة الحديثي، فلم أُحضر معي أوراقاً. فنهض قائلاً: سآتيك بالأوراق من غرفتي... فكان أن سجلتُ:

● سيدتي.. ثمة اختلاف بين موقفيك في "شظايا ورماد" (١٩٤٩) و"قضايا الشعر المعاصر" (١٩٦٢) من قضية الشعر الحر؛ فبعد أن كنتِ تردّدين مقولة برناردشو: "اللاقاعدة هي القاعدة الذهبية" في هجومكِ على القيود والقواعد، عُدتِ إلى الميل للتقنين، والضبط، والتعقيد، ممّا جعل بعض النقاد يرى في ما انتهيتِ إليه، ارتداداً عمّا دعوتِ إليه في بداية الحركة، فما تفسيرك لذلك؟

– هذا اتهامٌ لئيم روّجهُ بعض المغرضين الذين لم يكونوا راغبين في تشخيصي لعيوب شعرهم عندما بينتها في كتابي "قضايا الشعر المعاصر" تطبيقاً. أمّا ما يخصّ التنويع فأقول: إنّ لفتات الذوق في الإنسان المبدع ليستْ ثابتة، أي أنها تتبدل وفقاً

لحالتـهِ المزاجية (النفسـية) دون إغفـالٍ لأهمية الزمن، وهذا تنشيطٌ لنفس المبدع وحياته، ويمكنك الرجوع إلـى مقدمـة ديواني الموسـوم بـ"للصلاة والثورة" المنشور سـنة ١٩٧٨، فستجد فيهِ تفسيراً لهذا التنوع.

● في مقدمة ديوانك "شـظايا ورماد" هاجمتِ القافية، وعددتها حجراً تلقمـهُ الطريقة القديمة كلَّ بيـت، وأطلقت عليها تسـمية"الآلهة المغرورة"، ورأيتِ أنها أنزلتْ بالشعر العربي خسائر لا يُحصى عددها. لكنّكِ بعد ثلاثة عشـر عاماً أسـفتِ لعدم عنايتكِ بالقافية كما ينبغي. وخلصتِ إلى القول أن الشعر الحديث قد خسر خسـارة كبيرة باطراحهِ لها، أفلا ترينَ في هذا ارتداداً عمّا بشّرت بهِ؟

– نعم، إنني غيّرتُ رأيي في القافية. وقد كتبتُ أكثر من دراسـة عن أهميتها في نفسـية القارئ، ولكن أرجوك لا تسـمّ ذلـك ارتداداً، فأنا لسـتُ كذلك.

● مـاذا أسـميهِ إذاً؟ هـل تفترضين تسـميةً أخرى؟

– (بعـد لحظات) يمكنك أن تسـميه خروجاً.. نعم، هو خروجٌ عن المنطلقات الأولى، وفقاً لتطورات العصر وملمحهِ الحضاري.

● لِمَ كانت نازك الشاعرة غير ملتزمة بمنطلقات نازك الناقدة طوال أكثر من عشرين عاماً في بعض الرؤى؟

– هل لك أن تبينِّ المقصود بـ"بعض الرؤى".

● مثلاً: إن الناقدة كانت لا تجيز استخدام أكثر من خمس تفعيلات في الشـطر الواحد، ورأتْ أن عدد التفعيـلات يجب أن يُقنَّن كي يبقى الشـطر مشـدوداً دون ترهل. وحين أردنا معرفة مدى صلة تلك المنطلقات التنظيرية للناقدة بشـعر الشاعرة تبـيّن لنا أن الشـاعرة نفسـها خالفـت الناقدة، واسـتخدمت تفعيلاتٍ أكثر مما سمحت به الناقدة في الشطر الواحد!

– هـل جرى ذلـك فعلاً؟! وهل لك أن تُسـمي بعض تلك القصائد؟ وفي أيّ ديوان؟

● لا أذكـر أسـماء تلك القصائـد الآن، وربما سـأُهاتفك لأسمِّي بعضها إن شئتِ، علماً بأن ذلك الاستعمال ورد في أكثر من ديوان!

– (بعد لحظات) ربمـا! ولعلَّ هذا الخروج كان بسـبب توهج الحالة الشعرية، فلم ألتفتْ إليه. هل هناك رؤى أخرى في المخالفة!؟

● نعم. قضية الأضرب؟

– ما لها؟

● لم تكن الناقدةُ موافقةً على انتقال الشـعراء فـي القصيدة الواحـدة من ضربٍ إلى ما سـواه، وظلّـتْ تدعـو إلى وحدة الضـرب، ورأتْ في هذه الوحـدة قانوناً جارياً في القصيـدة العربية. لكن الشـاعرة لم تتقيـد بذلك القانـون العَروضي في قصائدها الحـرَّة في معظم البحـور التي نظمت عليها. والأمثلة بالعشـرات. فضلاً عن أن الناقدة رأتْ فـي تنوع أضـرب خليل حـاوي خروجاً على مبادئ الشعر الحر!

– كنـتُ حريصة في بـداءة الحركة على جعل ضرب القصيدة موحداً. ثـم وجدتُ بمرور الزّمن أن أُذنـي تتقبل الانتقال من الضرب الواحد إلى ما سواه من الضروب الأخرى التي أجازها الخليل في البحر الشـعري، فأبحت ذلك الانتقال في شعري وقصائد غيري.

● أين كانت تلك الإباحة؟ أقصد في أيةِ دراسةٍ سمحتْ ناقدتنا بتنوع الأضرب؟

– في مقدمتي للطبعة الخامسة من كتابي "قضايا الشعر المعاصر".

(ملاحظة: في هذه اللحظة وصل إلى الفندق عصام الملائكة، أخو نازك، فسلم وجلس مبتعداً بعض الشيء قبالتنا، وآنذاك أعلمتني نازك أنّ أخاها عصام يريدُ أن يريها قطعة أرض رشحها لها لتشيد عليها منزلاً عندما تقرر العودة إلى بغداد، وهي لا تدري إن كان موقعها مناسباً، لذلك ستراها اليوم. فخيَّل إليَّ أنها تُريدُ إنهاء اللقاء، فاعتذرتُ، وهممتُ بالمغادرة، لكنها قالت لي إن أخاها جاء قبل الموعد، وأن المقابلة ستستمر حتى الساعة الثانية عشرة ظهراً، فعدتُ إلى مواصلة طرح الأسئلة).

● علمت أن للناقدة كتاباً نقدياً جديداً في طريقهِ إلى الطبع، ولعلَّهُ سيرفد قضايا الشعر المعاصر، ويتواصل مع منطلقاتهِ النقدية، ويضيف إلى تلك المنطلقات رؤىً جديدة، فهل أنّ ظهورهُ سيكون قريباً؟

– نعم، ثمة كتاب نقدي آخر أسميتهُ بـ"سيكولوجية الشعر"، نشرتُ منهُ فصلين، هما: "سيكولوجية القافية" و"الإبرة والقصيدة" في مجلة "الشعر" القاهرية، ولعلّهُ سيرى النور قريباً.

● نشرتِ أكثر من حوارية وقصة قصيرة، حرصتِ فيها على ذكر فضاءات الأمكنة حرصاً تاماً، وجعلت الأحداث والأزمنة ترتبط بها، بوصفها محاور الحبكة وأمكنتها المركزية، كما في قصصكِ "ياسمين" و"منحدر التل" و"قناديل لمندلي المقتولة". غير أن تسميتكِ للنهر الذي يروي مدينة "مندلي" بـ"السيبة" أوقعتكِ في الخطأ، لعدم وجود نهر بهذا الاسم في مندلي، فهل كان الخطأ مقصوداً؟

– (تتذكر) نعم، أسميته بـ"السيبة"، وأقمتُ الأحداث حوله، فهل تأكدتَ أنَّ التسميةَ ليست صحيحة؟!

● نعم أيتها الأستاذة، لأنني راجعتُ أكثر من مصدرٍ جغرافيّ ومرجع، فتأكدَ لي أن اسم النهر هو "كنكير" و ليس "السيبة"!

– أرجو أن توثّقِ الإسم، وتكتب لي بهذا التوثيق، لأنّ مجموعتي القصصية الموسومة بـ "الشمس التي وراء القمة" في طريقها إلى المطبعة.

● سأفعل يا سيدتي. لكِ خالص العرفان، فقد منحتني إجاباتكِ ما كنتُ أصبو إليه من حقيقة، وأبعدتِ الظنَّ عني، وقرّبتِ إليّ اليقين.

ملاحظات خارج المتن:

■ كانت نازك عند اللقاء تعاني قليلاً من ألم أو قصور في حركة يدها اليسرى، كما ارتسمت على الجهة اليسرى من فمها بقايا نقاهة من مرض ألمّ بها، وترك فيها تلك الآثار.

■ أشرتُ إشاراتٍ طفيفة إلى هذهِ المقابلة في بعض هوامش كتابيَّ الموسومين بـ"نازك الملائكة دراسة ومختارات ١٩٨٧" و"نازك الملائكة الناقدة ١٩٩٥".

■ لم يُنشر كتاب نازك "سيكولوجية الشعر" إلا سنة ١٩٩٣. كما لم تظهر مجموعتها القصصية "الشمس التي وراء القمة" إلاّ سنة ٢٠٠٠ في القاهرة.

■ عند لقائي بالدكتور محبوبة (زوج نازك)

وابنهمـــا البرّاق في القاهـــرة صيف ٢٠٠٠، علمتُ أنهم لم يطلعوا على كتابي "نازك الملائكة الناقدة"، وبعـــد اللقاء صحبانـــي إلى حيّ الحســـين ومزارهِ بســـيارتهما التي يقودها البـــرّاق، وطمأناني على حالة نازك المرضية، لكنهما ذكرا أنها قعيدة المنزل فـــي حي "القبّة" بالقاهرة، وهـــي لا تغادرهُ إلاَّ لماماً حـــين يصطحبانهـــا أحيانـــاً في جولاتٍ ســـياحية تقتصر على مشاهدة القاهرة وضواحيها من خلال شـــبابيك الســـيارة ليس غير. وذكـــرا كذلك أنهما قبل مغادرتهمـــا للمنزل أطعماها، وناولاها الدواء، وتركاها تأخذ قسطاً من الراحة.

■ بعد عودتـــي إلى صنعاء مـــن القاهرة بقينا نتبـــادل الرســـائل، لكنه لـــم يجبني على رســـالتي الأخيـــرة. وبعد مغادرتي لليمن نهاية ســـنة ٢٠٠١، علمتُ من الصديق الشـــاعر عبـــد الرزاق الربيعي بوفاتهِ رحمهُ الله، لكنّ ما جاء في آخر رســـالة منه حـــريّ بالذكر فيما يتعلق بآثار نازك غير المعروفة. إذ كتب لنا في ٢٠٠١/٢/١٥، يقول: "لنازك أعمال خطيـــة بقلمها لم تُنشـــر حتـــى الآن، ذات أهمية بالنســـبة للدارســـين، من أهمها: يومياتها في ٦٣ دفتراً بالقطع المتوسط، وشعر في دفترين لم تنشرهُ بدعوى أنهُ من شـــعر الصبا والمناسبات. ثم لقاءات إذاعية وصحفية في الكويت ودمشق ومصر وبيروت وبغداد، ومجالس أدبية مع مشـــاهير الأدباء الذين التقت بهم في القاهرة وبرنستن. ثم ترجمة حكاية بيتر بان مع ونـــدي، تأليف ج. م. باري بالإنجليزية بنـــاءً على طلب البرّاق في صغرهِ. ولها أيضاً رواية بعنوان "ظـــلٌّ على القمر" في أربعـــة فصول، وفي ٢٤٣ صفحة، أتمنى أن يســـاعد الزمن على نشرها لإطلاع القراء والباحثين عليها".

فوجئنـا والمجلـة ماثلـة للطبع بنبأ وفـاة الشـاعرة الكبيرة نـازك الملائكة في القاهـرة عـن عمـر قـارب الرابعة والثمانـين. عزاؤنـا الكبير لقرائهـا ومحبي الشعر في الوطن العربي والعالم.

نـازك الملائكـة

ولدت الشـــاعرة نازك صادق الملائكة فـــي بغداد يوم ٢٣ أغسطس عام ١٩٢٣ في أسرة تحتفي بالثقافة والشعر فكانت أمها تنشر الشعر في المجلات والصحف العراقية باسم أدبي هو «أم نزار الملائكة» أما أبوها صادق الملائكة فترك مؤلفات أهمها موســـوعة «دائرة معارف الناس» في عشـــرين مجلد. و«الملائكة» لقـــب أطلقه على عائلة الشـــاعرة بعض الجيران بسبب ما كان يسود البيت من هدوء ثم انتشر اللقب وشاع وحملته الأجيال التالية.

درســـت الشاعرة اللغة العربية في دار المعلمين العالية وتخرجت فيها عام ١٩٤٤ كما درست الموســـيقى بمعهد الفنون الجميلة. ثم درســـت اللغات اللاتينية والإنجليزية والفرنســـية وأكملت دراســـتها في الولايات المتحدة عام ١٩٥٤ حيث حصلت بعد عامين على شـــهادة الماجســـتير في الأدب المقـــارن من جامعة وسكنســـن. وعملت الملائكة بالتدريس في جامعـــة بغداد ثم بجامعة البصرة ثم بجامعة الكويت. وتعد من أبرز رواد الشعر العربي الحديث الذين تمردوا على الشعر العمودي التقليدي وجددوا في شكل القصيدة حين كتبوا شعر التفعيلة متخلين عن القافية لأول مرة في تاريخ الشعر العربي.

ونشرت الشاعرة قصيدتها الشهيرة «الكوليرا» عام ١٩٤٧ فسجلت اسمها في مقدمة مجددي الشـــعر مع الشاعر العراقي الراحل بدر شاكر السياب (١٩٢٦- ١٩٦٤) الذي نشر في العام نفسه قصيدته «هل كان حباً؟» واعتبر النقاد هاتين القصيدتين بداية ما عرف فيما بعد بالشعر الحر.

صدر ديوانها الأول «عاشـــقة الليل» عام ١٩٤٧ ببغداد ثم توالت دواوينها التالية ومنها «شظايا ورماد» عام ١٩٤٩ و«قرارة الموجة» عام ١٩٥٧ و«شجرة القمر» عام ١٩٦٨ و«يغير ألوانه البحر» عام ١٩٧٠. كما صدرت لها عام ١٩٩٧ بالقاهرة مجموعة قصصية عنوانها «الشمس التي وراء القمة». ومن بين دراســـاتها الأدبية «قضايا الشعر الحديث» عام ١٩٦٢ و«سايكولوجية الشعر» عام ١٩٩٢، فضلاً عن دراسة في علم الاجتماع عنوانها «التجزيئية في المجتمع العربي» عام ١٩٧٤.